الإسلام والمسلمون بين تشويه الخاصة وجهل العامة في أوروبا :

إنهم يجهلوننا حقا، فالذين يفهموننا من رجال الاستشراق أو الاستخبارات لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة.. والأنكى من ذلك أن هؤلاء – بطبيعة عملهم – لا يقولون الحق عنا، بل يصورونا في أغلب الأحوال صورة نمطية بعيدة عن الحق والخير، تسمح لهم بتشويهنا وإعلان الحرب علينا إن اقتضت المصلحة ذلك..

وقليل منهم ينفذون ببصائرهم وأبصارهم فيصلون إلى الحقيقة من خلال هذه السحب المتراكمة التي تحول دون ظهور شمس الحقيقة.

إن التاريخ الذي يتم تدريسه للتلاميذ الأوروبيين الصغار – كما تقول الدكتورة فوزية العشماوي[1] – يعلمنا أشياء مختلفة تماما عما يتم تدريسه للتلاميذ العرب المسلمين في مدارس جنوب البحر الأبيض المتوسط.

فنجد أن نبي الإسلام ﷺ يتم تقديمه أحيانا على أنه (رسول) وأحيانا أخرى على أنه (شاعر) ملهم يرى رؤىً خارقة.

أما حقائق الإسلام فتقدم تقديما يتفق مع المفهوم اليهودي المسيحي للإسلام بكل ما فيه من انحرافات وتشويهات تجرح شعور المسلمين...

وهذه المناهج الدراسية تقدم الحروب الصليبية على أنها هجوم أوروبي لتحرير بيت المقدس من أيدي الكفار – أي المسلمين – الذين كانوا حسب ادعاء الأوروبيين يحتلون فلسطين ويسيئون معاملة المسيحيين الشرقيين أي المقيمين بها، وكذلك المسيحيين القادمين من أوروبا لزيارة بيت المقدس، وتغفل هذه المناهج الدراسية التنديد بوحشية الصليبيين وعدم تسامحهم مع سكان القدس حين انتزعوها من أيدي المسلمين عام

(١) صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية، وثائق ندوة صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية فيينا – النمسا – شعبان ١٤٢٠هـ - نوفمبر ١٩٩٩م.

(٤٩٣ هـ / ١٠٩٩م) بينما التاريخ العالمي والموسوعات العلمية الكبيرة اعترفت بأن الصليبين ذبحوا أكثر من ٧٠ ألفا من المدنيين من أهالي القدس دون تمييز بين النساء والأطفال والشيوخ أو بين مسلمين ويهود وحتى مسيحيين من أهالي المدينة المقدسة العزل من السلاح، وكذلك لزمت المناهج الدراسية الصمت التام أو الإغفال التام لتسامح المسلمين الكبير حين استعاد المسلمون القدس عام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧م) على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي الذي أصدر العفو التام عن كل الأهالي.

ولعل أكثر الأمثلة دلالة على ظاهرة الإغفال المتعمد لحقائق الإسلام ودوره الحضاري هي إغفال المناهج الدراسية الغربية الاعتراف بفضل الفلاسفة والعلماء المسلمين على النهضة الأوروبية[1].

وإذا كان الطفل ينشأ على هذه الصورة في هذه السن الصغيرة، فإنها تظل عالقة بوعيه دائماً، ولاسيما أن مناهج المراحل الثانوية والجامعية لا تختلف عنها إلا قليلا.

وإذا كانت هذه هي صورة الإنسان المسلم عبر تاريخه وعلاقته ومناطق اشتباكه مع الإنسان الأوروبي (المظلوم دائمًا) (المعصوم – كذلك – دائمًا) و(الباحث عن الإسلام) ولو من خلال إبادته للشعوب – دائمًا...

إذا كانت هذه هي صورة الإنسان المسلم – بهذا الميزان الأوروبي الظالم – فإن عقيدة هذا المسلم هي أيضًا عقيدة تقوم على القهر في علاقة الله بالإنسان، فالإنسان محكوم بالقدر الإجباري لا يملك أية مساحة من الحرية ولا يملك تحديد مصير حياته بل عليه أن يرضخ لهذا المصير.. وهنا على الأرجح تكمن جذور ظاهرة الميل إلى الاتكال على القدر التي يمكن ملاحظتها عند المسلمين.

وبما أن الفلسفات المادية المعاصرة تتخذ من الإنسان واختياره مركزاً للتفكير والتنظيم البشري، فإن الإسلام يقدم على أنه صورة مناقضة لهذه الفلسفة؛ لأنه يتخذ الله مركز الكون. أما حرية الإنسان فليس لها أهمية في النظام الكوني عند المسلمين...

(١) فوزية عشماوي: صورة الإسلام في الغرب من خلال المناهج الدراسية.

وبالتالي يتعلم الشباب في المناهج الغربية هذه الصورة التي يستنتج لهم منها أنها صورة حقيقية، وهي متخلفة وبدائية ولا تساعد المجتمع على النمو والنهوض والتطور كما هو حال المسلمين[1].

وبالنسبة للقرآن يعلمون الشباب هناك أن القرآن كتاب ألفه محمد للمسلمين، وقليلا ما يقولون: إنه كلام الله المنقول على لسان نبيه محمد، ويزعمون أن القرآن يتضمن أفكاراً كثيرة منقولة من العقيدتين اليهودية والنصرانية، كالاعتقاد بإله واحد وبيوم القيامة، ويحتوي كذلك على كثير من القصص الواردة في الإنجيل... متجاهلين حقيقة وجود قدر مشترك بين كل الأديان والفلسفات حول القيم الإنسانية المشتركة.. ومتجاهلين الفروق الدقيقة بين القرآن والعهدين القديم والجديد في كثير مما يتصل بالله وبكل الأنبياء، وبتفسير العلاقة بين الله والإنسان.. إنها في الإسلام علاقة ربوبية وعبودية لا مكان فيها لوساطات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

هكذا بإيجاز يمكننا القول: إنهم يجهلوننا حقا؛ لأن مستشرقيهم ورجال العلم واللاهوتيين، فضلا عن كتبهم ومناهجهم لا تقول عنا الحق، ولا تتعامل معنا بصدق وتعمل منذ قرون لتشويهنا حتى لا تتيح للفرد الأوروبي حرية المقارنة وحرية القرار في اتخاذ الدين الذي يراه مناسبًا له.

عوامل التشويه للإسلام في الحضارة الأوروبية:

في العصر الحديث استطاعت القيادات الأوروبية الأمريكية أن تطور عوامل النفور من المسلمين مستغلة رقعة فترة الخلافة العثمانية في كتب تاريخها؛ حيث تناولت تلك الفترة بأسلوب يوسع العداء والنفور من المسلمين، مازجة بينها وبين عرض مغلوط للحروب الصليبية، وبين نظرتها الاستعمارية التي استقتها من خلال حكمها

(١) أحمد محمد بن الديبان، صورة الإسلام في بلاد الغرب من خلال المناهج الدراسية (جوانب العلوم الشرعية) المرجع السابق.

واستغلالها لكثير من بلدان المسلمين... ومن العجيب أنها تقلب الحقائق بطريقة تخالف أبجديات العقل فتدافع عن احتلالها وإبادتها في الجزائر – وحدها – ثمانية ملايين مسلم من الجزائريين خلال احتلالها الذي استمر مائة وثلاثين سنة، وتدافع كذلك عن الحروب الصليبية مع أنها المعتدي في المرتين..

والمهم عندها أن يستغل التاريخ والحضارة في التنفير من المسلمين؛ ولذلك تنكر أيادي علمائهم وفلاسفتهم عليها، مع أنها لقرون طويلة كانت عالة عليهم، كما يؤكد غوستاف لوبون وول ديورانت وسيجريد هونكة وغيرهم... وهم يستغلون هذا كله لصنع حواجز نفسية ضد المسلمين، ولا مانع عندهم من التنفير من الدين كله لتجربتهم المؤلمة مع الكنيسة.

أما الإعلام فله الدور الأكبر في بناء هذا الحاجز الذي كلف البشرية الكثير من الصراع والهدم دون التوجه إلى البناء والتعمير. وقد ذكرت الدكتورة (إرم كاربن) الباحثة في جامعة (آخن) في بحثها حول عرض الإسلام في وسائل الإعلام الغربية في المؤتمر الثالث للمجلس الإسلامي في ألمانيا – أن تشويه صورة الإسلام كان بسبب عدم استيعاب وسائل الإعلام لحقيقة الإسلام والمسلمين، واعتبرت ذلك تجهيلا متعمدا للرأي العام الألماني، كما أضافت أنها أجرت دراسة في معهد الإعلام التابع لجامعة (آخن) وتوصلت إلى حقيقة أن وسائل الإعلام الألمانية تشوه صورة الإسلام والمسلمين مرة عن جهل ومرة متعمدة[1].

لقد استطاعت وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية المغرضة أن توجه ظاهرة الإرهاب العالمي وعلى رأسه الإرهاب اليهودي للنيل من الإسلام وتشويه صورة المسلمين، وهي تحصره في المسلمين تغطية على جرائم الصرب في البوسنة والهرسك، وجرائم الصهيونية في فلسطين، وجرائم أمريكا في أفغانستان والعراق وغيرهما.

(١) **انظر**: صلاح الدين الجعفراوي، مخاطبة القيادات الأوربية ضمن وثائق ندوة صورة الإسلام في الغرب، المرجع السابق.

ولا نريد أن نستطرد في ذكر الأسباب التي عاقت الخطاب الديني والحضاري عن الحوار وجلبت كثيراً من الشرور على البشرية، ونشرت العنف في معظم دول العالم وعلى رأسها أمريكا وأوروبا وإسرائيل، ولكم ذكرت تقارير منظمة العفو الدولية أن هناك حالات كثيرة لعدم احترام حقوق الإنسان في هذه الدول الثلاث دون أن يسلط عليها الضوء أو تُوضع تحت المجهر... ولنتذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر حوادث حرق بيوت اللاجئين السياسيين في ألمانيا، وقتل اللاجئة النيجيرية، والاعتداء على الأطفال في بلجيكا، وقتل بعض الشباب المغاربة في أسبانيا، وإلقاء المواطن الجزائري في النهر في فرنسا، والاعتداء على سائق التاكسي الأسود في أمريكا[1]...

ويرى (صلاح الدين الجعفراوي) أن عدم اعتراف معظم دول أوروبا الغربية بالدين الإسلامي وبالأقليات الإسلامية، مع أن الإسلام هو الدين الثاني في أوروبا، يؤكد أنه لا يوجد احترام لمواثيق وقوانين تلك الدول، ولا احترام لمبادئ حقوق الإنسان، ولا التزام بميثاق الأمن والتعاون الأوروبي الذي ينص في أحد بنوده على: (ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية للأقليات: الدينية والعرقية).

* * *

هذه هي بعض ملامح الخطاب الديني الأوروبي، فهو لم يعد خطابًا بين الكنيسة الممثلة للدين المسيحي وبين علماء الإسلام، بل أصبح بفضل الصهيونية واليمين المتطرف الصهيوني المسيحي ووسائل الإعلام خطابًا دينيًّا عامًّا يتصل بكثير من شرائح الفكر الأوروبي والمتأثرين به من المتعلمين وأنصاف المتعلمين، وقد كان لتخلف المسلمين وجهلهم وعدم تمكنهم من اللغات الأجنبية وجمود كثير منهم يد كبيرة في تحقيق الهيمنة لهذه الصورة المشوهة والظالمة عن الإسلام والمسلمين دون أن نقلل من أثر الأهداف الاستعمارية للطرف الآخر، والذي يخشى عودة الإسلام الصحيح على الساحتين الإسلامية وغير الإسلامية؛ لأنها – في رأيه – تشكل خطراً عليه... وهذا أمر عجيب....!!

(١) صلاح الدين الجعفراوي، المرجع السابق.

لكن أيا كان الأمر فإن خطابنا الديني يجب أن يكون واعيا بهذا الواقع، وألا ييأس من مواجهته، وأن ينشئ وسائل التأثير الحضارية الإعلامية والثقافية والاقتصادية التي تقاومه، وأخيرا – وهذا هو الأهم – ألا ينطلق من شعور عدائي يجعله يقاوم العنف بالعنف والحقد بالحقد، بل يقاوم التزييف بشرح الحقيقة، والإعلام المشوه بالإعلام الصحيح، والصورة السلبية للمسلم بالصورة الإيجابية المتأسية بأخلاق الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم والتجار والدعاة الصادقين والأمناء الذين نشروا الإسلام سلما بأخلاقهم في قارات العالم.

صحيح أننا نواجه مشكلة غريبة... يقف فيها المجرم في موقف القاضي... والقاتل في موقف المقتول.. أوكما يقول جارودي: (فإن الغرب سلب ونهب وقتل الآخرين طوال خمسة قرون بمنهجية مؤسسة تارة على أصولية دينية طبقا لأخطر أساطير التاريخ الإنساني: الشعب المختار وأرض الميعاد، ومملكة المسيح على الأرض التي تشيد على دماء عشرات الملايين من القتلى.. وتارة على علمانية ليبرالية طبقا للداروينية الشاملة ذات البقاء للأقوى، وأن للأعراق الأعلى حقوقا على الأعراق الأدنى...)[1].

وبحسب تعبير ناعوم تشومسكي المفكر اليهودي الأمريكي عن هذا الغزو الأوروبي، بعنونة كتابه: (خمسة قرون ومازال الغزو مستمرا) وهو عنوان كتاب له يدل دلالة عميقة على ما فيه (ومع ذلك كله، أي مع غزو الغرب للشرق لمدة خمسة قرون، ومع أن الغرب هو الذي أطلق حلقة العنف الشرير الأول، فإنه إذا هبت شعوب الشرق والإسلام تدافع عن نفسها أصبحت إرهابية جديرة بسحقها).

الخطاب الديني... ومبدأ الحوار في الإسلام.

في الجزء الأول من كتابه العظيم (إحياء علوم الدين) يورد الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) آفات الجدال والمناظرة والضوابط المطلوبة فيهما، متتبعا ظهور الخلافات

(١) روجيه جارودي: الإرهاب الغربي، مكتبة الشروق الدولية، ط ١، ١٤٢٥هـ.

الفكرية في الأمة، وهو يربطها بظهور الفقه (علم الاجتهاد في فروع الشريعة)، وعلم الكلام (علم العقيدة) منذ عصر التابعين والسلف الصالح؛ الذين اهتموا بعلوم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات، مع اتساع الدولة الإسلامية ووراثتها للعالم القديم.

ويكشف أبو حامد الغزالي ما يدخل في المناظرات من تلبيسات إبليس وتمويه أجناده وأعوانه؛ فهو يفحص دعاوى الملبسين والمتوصلين بالجدال والمناظرة إلى التشكيك في الحقائق؛ ثم يضيف:

إن التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروطا وعلامات لا تتغير مع اختلاف الزمان ومستجداته [1].

ولهذا يرى الغزالي أن من شروط الجدال:

- أن يكون المناظر مجتهدا يقول برأيه، ويجتهد في طلب الحق، وأن يقبله بلا تعصب.

- ألا يناظر إلا في مسائل واقعة أو محتملة الوقوع غالبا.

- وأن تكون المناظرة – قدر الاستطاعة – بعيدة عن المحافل، وعن حضرة ولاة الأمر؛ لأن ذلك أجمع للفهم وأبعد عن الرياء.

- وأن يكون المناظر في طلب الحق كناشد ضالة؛ لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه.

- وألا يمنع (أي المناظر) محاوره من الانتقال من دليل إلى دليل، ومن إشكال إلى إشكال؛ بل. يعطيه الحق الذي يعطيه لنفسه[2].

---

(١) الدكتورة آمنة نصير، حوار الحضارات مع أجل الإنسان تواصل لا صدام، ص ٢٥، العدد (١١٩) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ (١/ ٥٦-٥٨).

وهكذا تدلّنا قواعد فنّ الجدال والمناظرة على أصالة الحوار في حضارتنا، بطريقة راقية تحترم العقل الإنساني وتمكنه من تحقيق التعاون والتعارف بين الحضارات؛ بحيث نستطيع القول: إن الحوار باعتباره صورة راقية من صور التفاعل الحضاري، ووسيلة سلمية تؤدي إلى هدف إنساني كريم هو الوصول إلى الحق؛ يجد – في ظل شروط فن الجدال والمناظرة – المناخ الملائم لتحقيق غايته الكريمة؛ لكنه إذا فقد هذه الشروط أصبح وسيلة لاستمرار الصراع وتكريسه بطرق أقل عنفا.

وإذا ذهبنا – كما يقول الدكتور / عبد الملك منصور – إلى بيان موقف الحضارتين – الأوروبية والإسلامية – من الحوار (أو الجدال والمناظرة)؛ في ضوء عامل المرجعية أو القيم الحاكمة؛ فسوف نجد أن التوجه الصراعي، وليس الحوار السلمي هو المسيطر على الفكر الغربي بما فيه الفكر الديني (صراع الآلهة)، والفكر الفلسفي (مقولات نيتشه وهيجل)، والفكر الاقتصادي (نظرية صراع الطبقات)، و (نهاية التاريخ لصالح الرأسمالية عند فوكويا ما)، والفكر الحضاري الصدامي (مقولات برنارد لويس وتلميذه هنتجتون)، والفكر السياسي (نظريات توازن القوة والواقعية الوضعية)، والفكر البيولوجي (نظرية البقاء للأصلح)، والفكر الاجتماعي (مقولات الداروينية وأوجست كونت الاجتماعية)، والفكر النفسي (نظريات فرويد) إلى غير ذلك[1].

ولعل النظرة العابرة في تاريخ الحضارة الغربية تفيدنا أن غلبة التوجه الصراعي على الفكر الغربي ليست أمرا نظريا فحسب، وإنما هي أمر يؤيده الواقع، وسواء في التاريخ الداخلي للمجموعة (الأوروبية – الأمريكية): (تاريخ الحروب الدينية في الغرب، والحروب الأهلية داخل دولها، والحرب الباردة بين شقيها الرأسمالي والماركسي و... إلخ)، أو تاريخها الخارجي (توسعات الإمبراطوريتين الرومانية واليونانية، وغزوات الإسكندر، والحروب الصليبية لثلاثة قرون، والحربين العالميتين، والحملات الاستعمارية و... إلخ)[2].

---

(١) الدكتور / عبد الملك منصور، دور المجموعة الحضارية الإسلامية في حوار الحضارات، مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات، اليمن.

(٢) د/ عبد الملك منصور، دور المجموعة الحضارية الإسلامية في حوار الحضارات.

فإذا نظرنا إلى الحضارة الإسلامية في ضوء مرجعيتها الفكرية والقيمية، وكذلك المواقف العملية عبر التاريخ؛ فسوف نجد الحوار يمثل ركنا أساسيا وأصيلا في الشريعة والحضارة الإسلامية؛ إذ يوضح لنا القرآن الكريم – وهو أساس المرجعية الإسلامية – أن العلاقة الأساسية الأولى في هذا الوجود، وهي علاقة الخالق بالمخلوقات، قد بدأت وتأسست واستمرت على أساس الحوار وحده.

لقد أسس الله علاقته مع الإنسان والملائكة والجن على مبدأ الحوار، كما تروي لنا آيات قرآنية كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب] ، والأصل في القول – وكذا في العرض – كما نعلم هو الحوار[1].

والقرآن الكريم حافل بالآيات الكثيرة الدالة على الحوار مع المخالفين، وتعد الآية القرآنية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران:٦٤] دستورا للحوار الإسلامي، كما أن الآية القرآنية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] تمثل دستورا لحرية الاعتقاد الذي ينفي بطبيعته الإكراه ويدعو إلى الحوار والإقناع.

* * *

إن الحوار بين الناس والحضارات والأفراد (هو ما سماه القرآن التعارف) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجُرات:١٣] ، بما يقتضيه التعارف من تبادل الخبرات والمعارف، وتحقيق التفاهم والود والتعاون... هذا الحوار ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية وبقاء الحضارات.. ولهذا كانت فترات السلام هي الأصل في بناء الحضارات واستمرارها؛ أما الحرب فشذوذ يؤدي إلى إزهاق الأرواح وتبديد الإمكانات؛ وما ينفق عليها قد يسعد الجنس البشري كله قرونا – كما نرى في حجم

(١) د/ عبد الملك منصور، المرجع السابق.

الإنفاق العسكري في العصر الحديث – ومن هنا يكتسب الحوار أهميته البالغة من كون الوجود الاجتماعي الإنساني لا يتحقق إلا بوجود (الآخر المختلف)؛ الذي يمكن أن تتعرف عليه، وتتبادل معه الخبرات وصور التعاون... وبالتالي تستطيعان معا – بالالتقاء والحوار – إنتاج المعرفة، وتوليد الأفكار الجديدة؛ حتى تتضح المعاني، وتغني المفاهيم؛ لأن الحوار في مستوياته العليا إنما هو نوع من إنتاج المعرفة الراقية؛ التي تتحاور مع كافة ضروب المعرفة الإنسانية.

وبالتزام الحوار، وتواصله بين الأطراف المختلفة؛ تتقلص شقة الخلاف شيئاً فشيئا، وبفضله تتسع قدرات العقل، وتتعمق مداركه، وفي أجواء الحوار ينمو العقل، ويقوى بما يتهيأ له من تنوع في الفكر، واختلاف في المنهج [1].

صور من حوار الرسول لليهود:

لقد حاور الرسول ﷺ اليهود، كما حاور غيرهم، واستمع إليهم وسمح لهم بأن ينشروا ما عندهم من معرفة، بل أذن لصحابته بأن ينقلوا أحاديثهم التي تطابق أصل ديانتهم، ولا تعارض ما جاء به الإسلام، وهكذا احتوت كتب الصحاح والسنن حوارا متنوعا؛ طرفاه الرسول ﷺ وبعض المسلمين من جهة وأحبار اليهود أو عامتهم من جهة أخرى.

والمتتبع لهذا الحوار يلاحظ أنه ينقسم إلى الأنواع الآتية:

أ – **الحوار الجدلي**: ويبرز في القضايا المتعلقة بالعقيدة والتي أثارها اليهود.

ب– **الحوار التشريعي**: وتظهر فيه القضايا التي كانت أصلا لحكم تشريعي.

ج – **الحوار الاجتماعي**: وهو الذي يهتم ببعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين المسلمين واليهود[2].

---

(١) محمد زرمان، ثقافة الحوار ودورها في التأسيس للتواصل بين الأنا والآخر، مؤتمر الإسلام والمسلمون في القرن الحادي والعشرين، عمان، إربد، الأردن، جامعة اليرموك، نوفمبر ٢٠٠٤ م.

(٢) الدكتور محسن بن محمد بن عبد الناظر، حوار الرسول ﷺ مع اليهود، ص ١٥، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، دار الدعوة، الكويت.

د - **الحوار المصيرى**: وهو الحوار السياسي.

وفي الصفحات التالية نقدم بعض النماذج لحوارات الرسول ﷺ والمسلمين مع اليهود في المجالات الجدلية (الفكرية) والتشريعية، والاجتماعية، وهي المجالات الألصق بموضوعنا.

* * *

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في طرف المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه؛ لا يجيء بشيء تكرهونه.

فقال بعضهم: لنسألنه. فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت فلما انجلى عنه قال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].

وقد أجابهم الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.. فقالوا له: من جاءك بهذا؟

فقال لهم النبي ﷺ: «جاءني به جبريل من عند الله».

فقالوا: والله ما قاله إلا عدو لنا».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد أحدثا جميعا.

فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبيه.

قال عبد الله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأُتي بها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها، وما بعدها.

فقال ابن سلام: ارفع يدك، فإذا بآية الرجم تحت يده، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما».

وعن أنس ﷺ قال: «بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؟

قال: ما أول أشراط الساعة؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

فقال رسول الله ﷺ: أخبرني بهذا آنفًا جبريل.

قال: قال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشرط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها.

قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت،إنْ علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ :أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، أخيرنا. وابن أخيرنا. فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: أشرُّنا وابن أشرنا، ووقعوا فيه» [البخاري]

حوار المسلمين لليهود... والتجاوز عن التجارب الأليمة:

بعيداً عن المشاعر الشخصية الأليمة التي عانى منها المسلمون في المدينة من اليهود؛ بعد أن عقد محمد رسول الله ﷺ معهم معاهدة المواطنة الكاملة (الصحيفة- الدستور)؛ فإذا بهم يحاولون- مرة- الاعتداء على عرض امرأة مسلمة في أسواقهم (٢هـ)، ومرة أخرى يتآمرون على قتل الرسول نفسه(٤هـ)، ومرة ثالثة يقدمون على خيانة جماعية عظمى لمواطنيهم المسلمين، وهم في محنة حرب الخندق (بنو قريظة سنة ٥هـ)...

بعيدًا عن كل هذه الخيانات، وعن (الحرب التآمرية الباردة الدائمة المتآزرة مع

مشركي الجزيرة)، ومخالفتها لدستور المدينة...

بعيداً عن كل ذلك؛ يفتح المسلمون لليهود صفحة جديدة للسلام؛ حتى لا يظل المستقبل يدفع ثمن أخطاء الماضي.

* * *

كانت الأمة الإسلامية قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق؛ في السنة الخامسة للهجرة؛ وقد أوشك بنو قريظة (اليهود) أن يدمروا المدينة؛ بعد خيانتهم للدستور الذي يلزمهم- كمواطنين- بحماية المدينة مع المسلمين.

ولو أن محمدًا أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود في خيبر، ولنظموا هجومًا آخر ضد المدينة؛ حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى، كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لانهاية، وتستمر معها المعاناة والموت، ولابد أن أحكام الإعدام ضد الخيانة العظمى ليهود بني قريظة؛ قد تركت أثرها المطلوب في نفوس أعداء الإسلام[1]. كما أنه لا يبدو أن أحدًا قد صدمته المذبحة (لأنها عدل بكل القوانين)؛ بالإضافة إلى أن القرظيين أنفسهم كانوا قد ارتقبوا حتميتها؛ فهم يعرفون معنى الجريمة التي ارتكبوها.

ومع ذلك؛ فمن الأهمية بمكان- كما تقول كاترين أرمسترونج - أن نسجل هنا أن تلك البداية المأساوية لم تؤثر بصفة دائمة في موقف المسلمين من اليهود؛ فبمجرد أن أقام المسلمون إمبراطوريتهم العالمية الخاصة، وطوروها نظامًا متقدمًا في شريعتهم؛ أسسوا نظام تسامح؛ ظل يسود الأجزاء المتمدينة في الشرق العربي لمدة طويلة؛ حيث تعايشت مجموعات دينية في ظله جنبًا إلى جنب.

إن المعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية، وليست خطيئة إسلامية، ويجب أن يكون ذلك حاضرًا في أذهاننا؛ كي لا نخضع لإجراء التعميمات.

---

(١) أرمسترونج كاترين: محمد، ط ١٩٨٨م. مسطور، مصر، ص٣٠٨.

ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود- مثلهم مثل المسيحين- بحرية دينية كاملة، وعاش اليهود في المنطقة في سلام؛ حتى إعلان دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨م.

ولم يعانِ اليهود في ظل الإسلام قط ما عانوه في ظل المسيحية!!

أما الأساطير الأوربية المعادية للسامية فقد قدمت إلى الشرق العربي في نهاية القرن الماضي على يد البعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الجماهير عادة ما تقابلها بالازدراء[١].

ومن الجدير بالذكر هنا أن نقول: إن تغاضي المسلمين عن إساءات اليهود البالغة لهم عبر التاريخ، وتغاضيهم عن خيانتهم للدستور الذي وضعه رسول الإسلام، وأعطاهم فيه حق المواطنة الكاملة في المدينة المنورة (وطنهم)، ومع ذلك خانوا الدستور والوطن في محنة شديدة؛ كاد المسلمون – لولا رعاية الله يبادون فيها..

إن هذا التغاضي من المسلمين عن صفحات خيانة اليهود الكثيرة ضدهم يؤكد أن المسلمين ينظرون إلى الحرب على أنها أمر استثنائي بغيض، وأنه لا ينبغي على المسلمين أن يبدءوا بالعدوان؛ لأن الحرب العادلة هي التي تشن للدفاع عن النفس فقط؛ ومع ذلك فمتى دخلوا الحرب وجب عليهم أن يقاتلوا بالتزام أخلاقي مطلق، لكي ينتهي القتال في أسرع وقت ممكن- كما تقول كاترين أرمسترونج - وإذا اقترح العدو هدنة أو أبدى استعدادًا للسلم؛ فإن القرآن يأمر المسلمين ألا تكون شروط السلام غير أخلاقية أو مخزية؛ لكن القرآن يؤكد أيضًا على أن إنهاء الصراع الحربي أمر مقدس؛ على أن تتم مواجهة العدو بحزم، وأنه يجب تحاشي أي تردد؛ لأن ذلك يعني أن يستمر الصراع لأجل غير مسمى.

إن هدف أي حرب في الإسلام هو إحلال السلام والوفاق في أسرع وقت[٢].

---

(١) أرمسترونج كاترين: محمد، ص٣٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٠.

الحوار بين الإسلام، والمسيحية في المرحلة المبكرة:

منذ بداية ظهور الإسلام سنة ٦١٠م (١٣ق هـ) وهو يتعرض لحقد الحاقدين من أصحاب الوثنيات الوضعية والديانات الكتابية السابقة... وقد يكون هذا الأسلوب مقبولاً في حدود معينة، فليس من السهل ترك الإنسان لدينه وعاداته وتقاليده مهما كان بطلانها واضحاً، بَيْدَ أن الأمر يصبح غير مقبول- جملة وتفصيلا- حين يَتَعرَّف الإنسان على حقائق الدين الجديد ويرى سموها وتصويبها لما لِحَقَ الأديان السابقة من تشويهات لا تليق بالدين ولا بالعقل كما يرى – في الناحية الحياتية- تسامحًا وتكريمًا، بل وتعاونا على شئون الحياة من أصحاب الدين الجديد.. ومع هذا كله يأبى الإنسان إلا تشويه الدين الجديد وتسفيه أصحابه والافتئات عليه؛ مستغلا تسامحهم وصفحهم والفرصة الذهبية التي أتاحوها لهم ليعمل معهم في أعلى المستويات الوظيفية، متجاوزين عن إساءته التي لا يعرفون إلا القليل منها، بينما يعمد هو إلى إخفاء الكثير مما يسيء فيه إليهم...!!

والحق أن هذه هي قصة يوحنا الدمشقي(٥٠-١٣٣هـ/ ٦٧٠-٧٥٠م) مع الإسلام، مع الكرم الكبير الذي أسبغه عليه خلفاء بني أمية، وهم يعلمون أنه- وأباه من قبله – يتعصبون للأرثوذكسية.

- لقد عمد يوحنا الدمشقي إلى كتابة كتابين يشير فيهما إلى الإسلام على مستوى التاريخ والعقيدة والقرآن والأخلاق والممارسات.

- ولقد انتهج منهجًا مبتورًا متعسفًا في كتابته عن الإسلام؛ ولذلك لم يدخل في نهجه، وهو يدرس الإسلام، مسائل جدالية حول ما إذا كان مجيء محمد قد وَرَدَ في نبوءات أنبياء تقدموا عليه، أو ما إذا كان قد أتى بمعجزات تفوق مثيلاتها لدى عيسى وموسى عددًا وأهمية، أو ما إذا كان الأسلوب البلاغي في القرآن دليلا على نبوّة الرسول ﷺ.

بل من المؤسف أن نقول: إن يوحنا رفض التعرف الموضوعي على الإسلام، وإن المسيحية الأرثوذكسية هي التي استقطبت وحدها جلّ اهتمام يوحنا الدمشقي، فهو

يدرس الإسلام- ابتداءً- لتفضيل الأرثوذكسية عليه، ولتشويهه وتفنيد حقائقه، وهو تحيّز (غير علمي)، ومن أكبر أدلة تعمد يوحنا الدمشقي تشويه الإسلام ما اعترف به دانييل ساهاس من أن يوحنا كان يحاول التشكيك في كون الإسلام دين إبراهيم الحنيف من خلال وصفه المسلمين، على نحو لا يخلو من الخبث.

ويبدو أن يوحنا الدمشقي هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه (الأثيمولوجي)- كما يقول ساهاس- لأغراض الجدل العنيف وتحفيز الذاكرة أي لمجرد الشغب الجدلي الباطل.

كذلك فإنه يصف المسلمين بـ(المفسدين)؛ وهي التسمية التي درج اليونانيون على إطلاقها على المسلمين، لنزعهم عن الله كلمته وروحه، ردًّا على تهمة الشرك التي يوجهها المسلمون إلى المسيحيين بسبب عقيدة التثليث.

ومن خبثه وفساد منهجه أيضًا (وهو الذي يعيش مع المسلمين) أنه يصور الرسول ﷺ واحدًا من أتباع عدة أديان، لا يعرف من العهدين، القديم والجديد، إلا ما ضحلت قيمته[1]، ومن المعروف أن الرسول محمدًا ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، يقول فيه كتاب الله القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]... فمن أين للنبي محمد ﷺ العلم بالعهد القديم وهو أمي من أهل مكة التي لا يعيش فيها اليهود، وأين هو تأثير العهد القديم- أو الجديد- في القرآن الكريم، مع أن القرآن يرفض معظم ما يقوله العهدان القديم والجديد عن الله وعن عيسى والأنبياء جميعا، ويدافع عن (التوحيد) و(عصمة الأنبياء)و(بشرية عيسى ونبوته)!!

وأيًّا كان أمر المنهج الفاسد الذي استعمله بخبث شديد - (كما يقول ساهاس) – يوحنا الدمشقي، فإنه قام بإيجاد مناخ جدلي صاخب مع المسلمين.. كما أن عنصري الإثارة والجدَّة اللذين استخدمهما الدمشقي في مناقشاته العقدية، ومراسه الفلسفيّ في

(١) دانييل ساهاس: مجلة الاجتهاد- بيروت، عدد ٢٨، ص١٢٦ بتصرف.

تطويع مقولات الفلسفة اليونانية والمنطق، شكلت- كما يقول ساهاس- أمورًا كان من نتيجتها أن استرعت انتباه المسلمين، وشدّت اهتمامهم إلى ما يتجاوز المضامين الفكرية (يقصد الباطلة) موضوع المناقشة[1].

كما أن يوحنا الدمشقي، الذي عاش في فترة متقدمة خلال العصر الأموي، كان واحدًا من الذين ألهموا المسلمين دراسة الإسلام، لأغراض ذاتية على وجه التحديد، باستخدام نماذج وإنجازات مستقاة من حضارة أخرى، (وهو تفاعل حضاري مقبول)[2].

* * *

وهكذا وعبر تناظرات وتقاربات ومحاولات، ووجود مساحات فكرية وعقدية يلتقي فيها الإسلام مع أرثوذكسية يوحنا الدمشقي.. عمد الدمشقي إلى توظيفها توظيفًا حضاريًّا، ويخدم به مباشرة عقيدة الأرثوذكسية، لكنه في النهاية يخدم قضية الحوار والجدل الديني المبكر في تلك المرحلة الأولى الخطيرة التي التقى فيها النظام الإسلامي (العقدي والفكري) بالمنظومة المسيحية...

* * *

عندما قدم جيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من العراق بعد القادسية، وسقوط دولة فارس، أراد بعض الصحابة أن تقسم الأرض بمن فيها على المسلمين، لكن عمر رفض ذلك وقال: والله لن يُفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون عبئًا على المسلمين، وإذا قسمت الأرض فما يُسَدُّ به الثغور؟ وما يكون للذريَّة والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل العراق والشام؟

فأكثروا على عمر في تقسيم الأرض ومن فيها، فكان عمر لا يزيد على أن يقول: هذا رأيي. قالوا له: فاستشرْ،... فاستشار عمر المهاجرين الأولين فاختلفوا، وكان عثمان وعليّ وطلحة على رأي عمر.

---

(١) مجلة الاجتهاد: مرجع سابق ص١٣٢- ١٣٣ بتصرف.

(٢) دانييل ساهاس: الاجتهاد ٢٨،ص ١٣٤ بتصرف..

ثم أرسل عمر إلى عشرة من الأنصار، خمسةٍ من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

إني لم أدعكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملتُ من أمركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرّون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولستُ أريد أن تتبعوا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنتُ نطقتُ بأمرٍ أريده ما أردت به إلا الحق.

قالوا: بل نَسمع يا أمير المؤمنين.

قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين يزعمون أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، ولقد غنَّمنا الله الفرس وأرضهم وعُلوجهم، فقسمتُ ما غنموا من مال أو متاع بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه.... وقد رأيت أن أحبسَ الأرض بعلوجها، يرعونها ويؤدون الخراج عليها فيكون فيئًا للمسلمين، للمقاتلةِ والذريَّة ولمن يأتي بعدهم... ثم قال عمر: أرأيتم هذه المدن العظام (الشام- والجزيرة- والكوفة- والبصرة- ومصر)؛ لابدّ لها من أن تشحن بالجيوش، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قمستُ الأرضين والعلوج؟

فقالوا جميعا: الرأي رأيك، فنعم ما قلتَ وما رأيتَ.

فقال عمر: قد بان لي الأمر، واتخذ قراره بترك الأرض لأصحابها يزرعونها ويؤدون الخراج عليها. فكان ذلك خيرًا للمسلمين ولغير المسلمين، بسبب الشورى والحوار بين الحاكم والمحكومين للمصلحة العليا.

* * *

وعندما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام وكان يركب على بغلة فتلقاه معاوية في موكب نبيل، فأعرض عنه عمر؛ فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل فأقبل عليه.

قال عمر: يا معاوية، أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: ولم ذلك؟

قال: لأنا في بلاد لا تمنع من الجواسيس، ولابد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان؛ فإن ألزمتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت.

قال عمر: إن كان الذي قلت حقًّا فإنه رأي أريب، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب، لا آمرك ولا أنهاك [1].

* * *

وقام رجل إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فقال: إني مُكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغِلظة فاحتمله إن كرهته، فإن وراءَه ما تحبُّه إن قبلتَه.

قال: هات يا أعرابي. قال: فإني سأطلق لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسن من عظتك، تأدية لحق الله وحقّ إمامتك.

إنه قد اكتنَفَك (أحاط بك) رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دُنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربَّهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حَرْبٌ (مبعدون) للآخرة سِلْمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لن يألوا (يقصروا) الأمانة تضييعًا، والأمّة عَسْفًا وخَسْفًا (ظلمًا وإذلالاً) وليسوا مسئولين عما اجترحْتَ، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غَبْنًا مَنْ باع آخرته بدنيا غيره [2].

* * *

أما الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز) رضي الله عنه فالإجماع يكاد ينعقد على أن الركيزة الأولى لسياسته الداخلية والخارجية تقوم على أسلوب المراسلات والحوار مع الفرق المعارضة في الداخل، والقوى الخارجية، فقد نهج طريق الحوار مع فرق المعارضة مثل

---

(١) المرجع السابق، ١١٩، ١٢٠.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو يعلى ورجاله ثقات (٥/ ٢٣٦).

الخوارج والقدرية، وغيرهما، على أساس أن هذا الحوار هو الوسيلة الإسلامية الأولى للتعامل مع المخالفين.

ومما هو معروف من تاريخه أنه وجه رسائل إلى حكام السند والهند وملوكهم، حثهم فيها على اعتناق الإسلام، وأنه بإمكانهم إذا ما فعلوا ذلك الاحتفاظ بسلطانهم وممتلكاتهم، وقد تحول بعضهم إلى الإسلام عندما سمعوا بعدل عمر، وقد أرسل عاهل التبت في الهند رسالة جوابية يطلب فيها من عمر أن يرسل له فقيها لكي يتعلم مبادئ الإسلام.

وثمة مراسلات دارت بين عمر بن عبد العزيز والعاهل البيزنطي ليو الثالث تنطوي على الجدال الذي يدور بين المسيحية والإسلام.

ويطلعنا المسعودي على سفارة أرسلها عمر إلى (ليو الثالث)، وكانت مهمة هذه السفارة التي نجهل الأشخاص الذين شاركوا فيها غير واضحة، غير أنها كانت (في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه إليه).

وثمة رواية أخرى لابن عساكر، أحد المؤرخين المتأخرين، والذي يهتم بالروايات الشامية، تطلعنا هذه المرة على سفارة أرسلها (ليو الثالث) لعمر.

وعلى الرغم من الصعوبات التي تكتنف عملية الحصول على النصوص التي كانت موضوع هذه المراسلات، فقد أمكن حصر أربعة أنواع من نصوص المراسلات، منها النصوص ذات الأصل الأرمني والتي ترجمت ضمن كتاب (Ghevond) إلى اللغة الفرنسية وقام Arthur Jeffery بدراستها وترجمتها إلى الإنجليزية.

وفي هذه النصوص وجه عمر بن عبد العزيز إلى(ليو الثالث) عددًا من التساؤلات والاستفسارات حول المسيحية ومبادئها، في حين نجد أن رسالة ليو الثالث تضم الجواب والتفسير[1].

وهذه النصوص جميعها، تعطي- بدون أدنى شك- صورة للجدال العقائدي

(١) عز الدين جسوس، سياسة عمر بن عبد العزيز الخارجية وموقف حماة أهل الذمة، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد٢٧، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١.

واللاهوتي بين المسيحية والإسلام، والأغلب على الظن- وهذا ما تشير إليه نتائج دراسة تواريخ كتابة هذه النصوص- أنها كتبت في فترة تدوين المعارف التاريخية في العالم الإسلامي، بل في أوج عملية التدوين والترجمة، لكنها على أي حال نوع من الجدال والحوار يدل على منهجية الحوار في الحضارة الإسلامية، كما يدل على وجود الحوار بين أصحاب القرار السياسي في الحضارتين الإسلامية والمسيحية[1].

* * *

وفي داخل الدولة الإسلامية عرف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بأسلوبه المتميز في حل المشكلات من خلال الحوار... فقد كتب رضي الله عنه إلى الخوارج:

(من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد:

أوصيكم بتقوى الله، فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق] **أما بعد**... فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان ابن داود، وقدوم صاحبيكم والذي أتى إليهما، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢١﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥﴾ [النحل]، وقال: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾ [محمد].

وإني أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا في غير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تُشبِّهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه ونحن ندعوكم إليهما، هذه نصيحة منا نصحنا لكم

(١) عز الدين جسوس، مجلة الاجتهاد،بيروت، العدد ٢٨، ص٣٣.

فيها، فإن تقبلوها فذلك بُغيتنا، وإن تردّوها على من جاء بها فقديما ما استُغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله، وقد قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

* * *

حوار بين الخليفة المأمون ونصراني مرتد:

وقال الخليفة المأمون لمرتدٍّ إلى النصرانية: خَبِّرْنا عن الشيء الذي أوْحَشَك من ديننا بعد أنسك به، واستيحاشِك مما كنت عليه؟

قال المرتدّ: أوحَشَني ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، والتكبير في الجنائز.. ووجوه القراءات، ووجوه الفتيا؛ وهذا ليس باختلاف، إنما هو تَخَيُّر وسعة وتخفيف، فمن أذَّن مَثنى وأقام مثنَى لم يخطِّيء من أذَّن مثنى وأقام فُرادَى، ولا يتعايرون بذلك ولا يتعايبون.

والاختلاف الآخر: كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عَيْن الخبر.

فإن كان الذي أوْحَشَك هذا حتى أنكَرْت، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن يُنزِّل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل.

قال المُرتدُّ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن المسيح عبد الله، وأن محمدًا (رسول الله) صادقٌ، وأنك أمير المؤمنين حقًّا.

* * *

حوار إسلامي مسيحي في بلاط السلطان العثماني:

ومما يذكره المؤرخون أن مطران سالونيك، (جيور جيوس بالاماس)، كان سليل عائلة نبيلة، نشأ في بلاط القسطنطينية إلى جانب أندرونيكوس (Andeonikos) الثالث؛ الذي قُيّض له أن يصبح إمبراطورًا بعد ذلك، وكان – إضافة إلى ذلك- واحداً من ألمع اللاهوتيين البيزنطيين، وزعيماً لحركة هسيكاست (Hesychast) التي اعتمدتها الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية عقيدة رسمية لها[1].

وبينما كانت جحافل السلطان العثماني (أورخان) تحتل كاليبوليس (Kalipolis)، ألقى البحارة الأتراك القبض على بالاماس، وهو يبحر من جزيرة تينيدوس (Tenedos) إلى القسطنطينية، واقتيد إلى بيثينيا (Bithynia)، وقد مددت إقامته هناك بعد أن تبين للأتراك الهوية المميزة لسجينهم.

وقد تناهت بلاغة المطران بالاماس إلى السلطان (أورخان)؛ الذي بادر إلى عقد ندوة عامة في نيقية (Nicaea) حيث دعا عدداً من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام لتمثيل الجانب الإسلامي في هذا اللقاء[2].

وبدا أن المناقشة ستجرى باليونانية، وهي اللغة التي كان يجيدها يهود نيقية، ويُرجح أن عدداً من المترجمين قد توافد إلى الندوة لمساعدة الأتراك على التقاط وقائع المساجلة.

وقد تناولت المناقشات مسائل جوهرية منها موسى والأنبياء، والبعث وصعود المسيح، وإحجام المسيحيين عن الاعتراف برسالة النبي محمد ﷺ، والختان، وبدا في تلك الندوة أن المسلمين كانوا مغتبطين مما سمعوا، وقد حيُّوا (بالاماس) باحترام كبير قبل أن تختتم المناقشات، وهذا يدل على احترامهم للحوار مهما تكن آراؤهم في الموضوعات، وفي المقابل أقدم أحد اليهود ممن اعتنقوا الإسلام على إهانة المطران وضربه، غير أنه اعتقل فوراً وجيء به إلى السلطان لتأديبه!!

---

(١) إليزابيث أ.زخاريادر، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد ٢٨، ص١٤٠-١٤١.

(٢) مجلة الاجتهاد، المرجع السابق، ص١٤٢-١٤٣.

وقد كانت مناقشات (بالاماس) اللاهوتية مع المسلمين معروفة تماماً لدى معاصريه؛ وفقاً لدلائل تشير إلى ذلك في كتابات كل من بطريق القسطنطينية فيلوتوس (Philotheos)، وعالم آخر يدعى نيكوفوروس غريفوراس[1].

وقد كان (غريفوراس) مناوئاً عنيداً لعقيدة الـ (هسيكاست) وبالتالي خصماً لبالاماس لا سبيل إلى تهدئته، وبناءً عليه فقد جاءت روايته التي ضمنها معلومات حول إقامة المطران في بيثينيا واضحة المقاصد، الغرض منها الإساءة إليه وإذلاله. وعلى الرغم من ذكر (غريفوراس) لوقائع الندوة الدينية العامة التي نظمها أورخان، فإنه يشير إلى أن هذه المساجلة لم يُقصد منها سوى إبراز (الفظاعة الجديدة) متمثلة في حركة (الهسيكاست)؛ وهكذا جاء الانتقاص لمكانة بالاماس ولعقيدته من غير المسلمين[2].

وفي إحدى الليالي الباردة سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، وبينما كان السلطان العثماني بايزيد جالساً في أنقرة بالقرب من المدفأة بصحبة أستاذ عراقي نابه مشهود له بالفضل وولديه الاثنين، أثيرت مناقشة حول بعض المسائل الدينية، ثم استؤنفت المناقشة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وفي هذه المناقشات الدينية كان مانويل الثاني باليولوغوس الإمبراطور البيزنطي ضيفاً على السلطان بايزيد ومشتركاً فيها، واستمرت على هذا المنوال حوالي عشرين يوماً متتالية.. وقد استعين بلفيف من المترجمين يتقنون العربية والفارسية اللتين كان يتحدث بهما بعض المنتدين، وكان المسلمون في تلك الحلقة يتدخلون بطرح أسئلتهم؟ وأحياناً كثيرة كان السجال يتطور فيضفي على الحاضرين مناخاً حيويًّا.

ومهما يكن الأمر فقد غطت هذه المناقشات موضوعات معترفاً بها حول اللاهوت، والتصور الإسلامي للجنة، وطبيعة النبات، والحيوانات والكائنات البشرية، والرسول ﷺ وعقائده، والأنبياء، وموسى، والروح القدس، وطبيعة الإيمان، والتصورات الإسلامية حيال الثالوث المقدس أو الشرك، إلى غير ذلك من موضوعات أخرى أثيرت في أجواء من المودة والصداقة.

---

(١) السابق، ص١٤٤.

(٢) إليزابيث أ. زخاريارد، مجلة الاجتهاد، ص ١٤٥.

وفي الوقت نفسه تقدم لنا هذه النماذج صورة التسامح الأخلاقي، والحوار الديني الإسلامي البيزنطي من قبل مستويات رفيعة دينيًّا وسياسيًّا[1].

* * *

الحوار والمناظرة في الأندلس:

وفي الأندلس شهدت قصور الأمويين، والعامريين (١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م)، وملوك الطوائف (٤٢٢-٤٧٩هـ/ ١٠٣٠-١٠٨٦م) ألواناً من المحاورات والمساجلات قامت بين شعراء وأدباء كابن العريف، وابن شهيد، والزبيدي، والقسطلي، والطبني، وأبي العلاء صاعد، وقد صارت قصصها ووقائعها مادة طيبة لحركة الفكر في الأندلس[2].

وكانت هناك مساجلات أخرى هدفها الانتصار للرأي، ومقارعة الخصوم، سواء من خارج الدين الإسلامي أو من داخله، من أصحاب المذاهب الفقهية والكلامية الأخرى. ومساجلات أبي محمد بن حزم، وأبي الوليد الباجي من أشهر المساجلات التي تعكس هذا النوع من المبارزة الفكرية التي تعقد لها المجالس ويحضرها المثقفون من مؤيدين ومعارضين.

ولم يكن مجال هذه المناظرات التنافس والكسب فقط، كما أنها لم تكن لمجرد التسلية، وإنما كانت أسلوباً من أساليب امتحان القدرة الفكرية والفنية. والطريف من أخبار هذه الامتحانات هي تلك التي يقوم بها العلماء بعضهم لبعض في المجالس العلنية، ويترك الأمر لنتائج هذه الامتحانات لمنح الألقاب العلمية، وقد كان لبعض المناظرات أثر عظيم في تقرير مصير العلماء[3].

---

(١) السابق، ص١٤٦-١٤٧ بتصرف.

(٢) د/ طه الحاجري، ابن حزم صورة أندلسية،، طبع ونشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ص٥٣.

(٣) د/ وديعة طه النجم، مقال/ العلاقات بين العلماء، مجلة عالم الفكر، عدد١، مجلد إبريل سنة ١٩٧٠، ص٢٥٢،٢٥٧.

وشأن هذه المناظرات في الحياة العلمية القرطبية والأندلسية عامة شأنها شأن الرسائل العلمية في عصرنا، بل لقد كانت أبعد أثراً؛ لأنها شملت ذوي المكنة والتمرس في العلم، ولم يسلم منها كبار الشيوخ[1].

وكانت هذه المناظرات تقوم على أسس علمية رصينة، في أغلب الأحايين، يؤكد هذا ما قيل من أن متكلمين اجتمعا فقال أحدهما: هل لك في المناظرة؟ قال: على شرائط: ألا تغضب، ولا تعجب ولا تشغب، ولا تحكم، ولا تُقبل على غيري وأنا أكلمك، ولا تجعل الدعوى دليلاً، ولا تجوز لنفسك تأويل آية إلا جوزت لي تأويل مثلها، وعلى أن تؤثر التصادق، وتنقاد للتعارف، وعلى أن كلًّا منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته، والرشد غايته[2].

الحوار الحضاري والديني في الحروب الصليبية:

لم تكن الحروب الصليبية- كما هو المتوقع- حرباً كلها، على امتداد كل الأيام أو الشهور؛ بل كانت تتخللها فترات سلم كثيرة، تمليها ضرورة الحياة والطبيعة الإنسانية؛ لحرب استمرت زهاء قرنين من الزمان...

وفي ضوء هذا، لا يبدو من المستغرب أن تزدهر العلاقات التجارية والثقافية بين الصليبيين الذين احتلوا الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس، واستوطنوها، وبين المسلمين في هذه الأيام التي يتقاتل الناس فيها حيناً، ويتبادلون التجارة والثقافة حيناً آخر؛ في عملية حوارية من أطرف العلاقات الجدلية في التاريخ.

وإذا كان (التتار)؛ الذين دمروا بغداد، وقضوا على الخلافة العباسية في العراق، قد خرجوا- وهم المنتصرون- مسلمين؛ بعد أن عمدوا- بفطرة غير مركبة – إلى التعرف الموضوعي على الإسلام.. فإن الأوروبيين الذين يحملون تراثاً مركباً، وفطرة دنيوية مصلحية بحتة (براجماتزم) قد خرجوا- وهم المنتصرون أولاً والمنهزمون أخيراً-

(١) السابق.

(٢) د/ وديعة طه النجم، العلاقات بين العلماء، ص٢٥٨، وانظر د/ أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ص٨٥.

بإدراك حقيقة الإسلام؛ مع اتخاذ قرارهم بعدم الاقتراب الموضوعي منه، والعمد إلى تشويهه، والاكتفاء بنقل علومه وثقافته العامة، ونظمه، ونواحي تقدمه؛ وذلك خشية على أوروبا من الإسلام... وزادوا الطين بلة فكونوا كتائب من المستشرقين ثم المستغربين للحفاظ على التشويه؛ ولذلك فقد ظل الجهل والتحيز قروناً يحيطان بمعرفة بيزنطة والغرب بالإسلام وبالعالم الإسلامي؛ فالبيزنطيون الذين تصارعوا مع المسلمين لثلاثة قرون كان لديهم أدبهم الشعبي الذي يصور المسلمين يعبدون ثلاثين إلهاً أكبرهم (مهومد)، كما يذكر ذلك (ريتشارد سوذرن)؛ مستغرباً فظاعة الأساطير المنتشرة عن الإسلام في الغرب خلال القرن التاسع إلى الثاني عشر الميلادي. وعلى الرغم من التعايش عن قرب مع المسلمين لعدة قرون في أسبانيا، والحروب الصليبية، مما يفترض معرفة أفضل؛ فإن واقع الحال يذهب باتجاه مغاير[1].

ومن أدلة (الجهل المطبق) الذي كان عليه الصليبيون قبل أن يتعرفوا على المسلمين في الحروب الصليبية، ما هو معروف من الطبيعة الغوغائية لسلوكيات الحملات الصليبية الأولى؛ ليس ضد المسلمين وحدهم، بل ضد البيزنطيين أيضاً، ويضاف إلى ذلك أنهم عندما احتلوا مدينة (طرابلس- الشام) التي أصبحت إحدى مستعمراتهم- لم يترددوا في إتلاف مكتبتها العامرة بمائة ألف كتاب. ومع هذا فالزمن وما يحمله من احتكاك مباشر، وغير مباشر، والرغبة في معرفة العدو.. كل هذه الأمور ستدفع الصليبيين باتجاه التعرف أكثر على معالم المسلمين والاقتباس من المظاهر المختلفة للحضارة العربية الإسلامية التي ستفرض نفسها كحضارة أرقى على رجال الغرب[2].

* * *

أجل، لقد حفزت الحروب الصليبية (الفرنجة) الهمج على التعلم من المسلمين، وقد اتسعت معرفتهم بما في العالم العربي من جغرافية بشرية، وتاريخ، وعلوم؛ مما خلق عندهم نهضة في دراسة القانون، والطب، والمنطق، وبدءوا بتكوين نقابات من

(١) شمس الدين الكيلاني، حقبة الحروب الصليبية، والوضع على طرفي المجابهة التاريخية- مجلة الاجتهاد، عدد ١٨، بيروت.

(٢) المرجع السابق.

المدرسين أسسوا عليها فكرة الجامعة. وهكذا نشأت الجامعات من جامعة باريس إلى أكسفورد، وكمبردج بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي.

كما اتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم، ووقفوا على فنون الشرق وصناعته، وما فيها من رونق وفن ودقة. والراجح أن المستوى العام للمعيشة في الغرب- كما يشير إلى ذلك رنسيمان- لم يرتفع إلا بفضل رغبة العساكر والحجاج العائدين في أن يلجئوا في أوطانهم إلى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة[1].

وأيضا- كما يعترف (رنسيمان)- سيصبح الأوروبيون- بفضل ما يأخذونه من المسلمين في الحروب الصليبية- قادرين على أن يميزوا بين السلوك، وأساليب الحياة الحضارية الإسلامية: (العلوم، والتقنيات، والذهنيات، والتفلسف العربي والإسلامي..) (وهذه يأخذونها وقد يعترفون أحياناً بفضلها وقد لا يعترفون في أحيان أخرى كثيرة!!).. لكنهم- كما يؤكد (رنسيمان) يظلون محافظين على جهلهم وعدائهم للإسلام وعقيدته (عقيدة التوحيد).. وهو ما يمثل ظلماً تاريخيًّا وأخلاقيًّا كبيراً.

ومع ذلك كله- يؤكد رنسيمان- على القيمة الحضارية للحوار أثناء فترة الحروب الصليبية مشيراً إلى أن هذه الفترة التي امتدت قرنين ونصف: (من أهم مراحل التاريخ المؤثرة في المدنية الغربية؛ إذ إن أوربا لم تكد تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الجرمان الطويلة الأمد؛ التي يطلق عليها العصور المظلمة (العصور الوسطى)؛ حتى كانت – بفضل المسلمين- براعم ما نطلق عليه النهضة الأوربية تأخذ في الظهور)[2].

ونختم بالإشارة هنا إلى أن هذا التسامح والانفتاح من المسلمين جزء من دينهم؛ فهم دائماً يفتحون ذراعيهم للحوار، وتجاهل آلام الماضي؛ متغاضين عن الظلم الذي يعاملهم به الآخرون؛ تاركين الأمر لمحكمة الله العادلة.

---

(١) شمس الدين الكيلاني، حقبة الحروب الصليبية.

(٢) نقلاً عن المرجع السابق بتصرف.

اقتراحات في مجال الحوار المعاصر:

لعلنا بسطنا القول فيما يتعلق بالواقع الديني الأوروبي بالنسبة لنا نحن المسلمين، وعلى الطرف الآخر بسطنا القول في الطبيعة الحوارية الدينية الإسلامية من خلال التأصيل الإسلامي والتجربة الحضارية التاريخية.

ونحب أن نشير إلى أن احتمالات العنف والتسامح الفردية أو العابرة أو المحدودة واردة على الجانبين، لكننا هنا نتكلم عن الظواهر العامة التي تؤكدها تجربة التاريخ والتي لا تنفيها حالات الشذوذ... كما أن القواعد لا تعني عدم وجود حالات شاذة بصفة عامة.

ومع كل ما ذكرناه، ولأننا الطرف الأكثر فائدة من الحوار، لأننا أصحاب دعوة ورسالة ولأن ديننا في طبيعته دين حوار ورحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] كما كان دين المسيح عليه السلام في أصله قبل أن تسقط على نصوصه الأهواء، مكتفية بما يشم منه رائحة السيف، وهي بعيدة جدًّا عن طبيعة المسيح عليه السلام الذي كان يأمر بإدارة الخد الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن.. وأيضا لأننا الطرف الذي لا تخدعه القوة، وهو لا يملك القوة المصحوبة بالاستعمار، والجنوح للإبادة والاحتلال، ومصادرة خصوصيات الآخرين باسم (العولمة) وثرواتهم باسم (الجات)...

لذلك- ولغيره- فإننا يجب أن نحاور في خطابنا الديني.. حتى ولو كنا- عبر قرون كثيرة- الأقوى والأعلم.. فهكذا أثبتت حضارتنا، تلك التي انطلقت من كتاب ربنا وسنة نبيه عليه السلام.. لقد أمرنا الله في كتابه الكريم ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].. أما رسوله الكريم ﷺ.. فقد ذكرنا في الصفحات السابقة كثيرا من صور حواره مع اليهود والنصارى والوثنيين.. المسالمين والمحاربين.

وفي البداية نشير إلى أننا نحن المسلمين وحدنا الذين من حقهم ومن واجبهم- أن

يحددوا إطار خطابهم الديني منطلقين من الثوابت التي لا تتغير في دينهم، ومن المتغيرات التي تواجه التحديات في كل عصر، عن طريق باب الاجتهاد المفتوح دائما في ظل ضوابط الثوابت القرآنية والنبوية..

وليس من حق غيرنا- أمريكاناً أو يهوداً أو حكاما يسيرون في هذا الفلك أو ذاك- أن يحددوا لنا إطار خطابنا الديني.. وأن يخضعونا بالتالي لفكرهم العلماني أو لعقائدهم الدينية.. ولو وقع هذا- كما يراد لنا الآن- لفقد الحوار شرطه الأول الذي هو تعبير كل طرف عن فكره.. وتقديمه للآخر.. لا ليفرض عليه الإيمان به، فلا إكراه في الدين، ولكن ليتبين الرشد من الغي، بلا تدليس أو تأويل من مستشرقين أو مستغربين.

إن خطابنا الديني الأصيل نفسه هو الذي يفرض علينا أن نجتهد في مواجهة النوازل والوقائع وتغير العصور والأماكن بما يلائمها.. لكن ذلك كله يبقى في دائرة الثوابت والنصوص، وإلا فقد صفته الإسلامية.. فالإمام الشافعي في مذهبه القديم في العراق، وفي مذهبه الجديد في مصر، هو نفسه الإمام الشافعي الملتزم بالكتاب والسنة.. لم يحد عنهما قيد أنملة.

وقد تملي الظروف أن نخاطب- دعاة وعلماء- المثقفين بأسلوب يختلف عن خطابنا لغير المثقفين، أو أن نخاطب الأوروبيين بأسلوب يختلف عن خطابنا للهندوس في الهند.. أو أن نخاطب النساء أو الأطفال أو الحكام بغير ما نخاطب به غيرهم.. لكن هذا كله يجب ألا يحرف الكلم عن مواضعه، بل يجب أن يظل في دائرة الحكمة وفقه الدعوة والخطاب والبلاغ.. ومراعاة مقتضى الحال..

ولقد علمنا القرآن الكريم في أسباب نزول آياته ألوانا من هذه (الحكمة) في البلاغ، عبر مراحل نزوله المكية والمدنية، كما علمنا الرسول ﷺ أن الله يبعث لهذه الأمة في كل قرن من يجدد لها أمر دينها.. ومع ذلك، فنسيج القرآن- عبر سنوات نزوله المكية والمدنية- نسيج متكامل منسجم لا تناقض فيه.. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].. كما أن تجديد الدين- في الإجماع

الإسلامي والملتزم بالإسلام- يجب أن يكون من داخل النصوص والثوابت، لا من داخل نسبية العقول، والإسقاطات الفكرية والمذهبية، أو التأويل المتعسف الذي يحرف الكلم، ويقرؤه كما يحب ويهوى، وليس حسب دلالات الكلمة أو الجملة في ضوء ضوابط المعاجم وإقرار أهل الاختصاص في المجامع العلمية أو الفقهية.

* * *

ضرورة الحوار الإسلامي

لقد درج الناس على ربط (الخطاب الديني والحوار) بالحوار مع غير المسلمين، ونسوا أن الحوار في داخل المجتمعات الإسلامية أهم، وهو من قواعد الانطلاق الناجح- في الحوار مع الخارج...

لقد آن أوان الوصول إلى القواسم الجامعة وشعب الإيمان المتفق عليها، بين كل العاملين في المجتمع الإسلامي تحت شعارات مختلفة، مثل: السلفية، والصوفية، والجماعات الإسلامية والحركات الإسلامية، وحركات الدعوة، والعلماء المتخصصين والدعاة المخلصين، سواء كانوا من أهل الاختصاص أو لم يكونوا.. ماداموا قادرين على البلاغ والانطلاق وفاقا لضوابط الكتاب والسنة، فالدعوة واجب إسلامي عام يؤدى عبر مستويات مختلفة، ومساحات مختلفة.. ولعل هؤلاء جميعا يلتزمون بالالتقاء على الكتاب والسنة الصحيحة، تاركين لأهل الذكر أمر الفتوى والاجتهاد، ملتزمين بالعمل المشترك في المتفق عليه والإعذار في المختلف فيه.. واضعين ميزانا لفكرهم وعملهم، وهذا ما قرره حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في عباراته التي يرفض فيه الإفراط والتفريط ويجمع بين النقل والعقل..

قال أبو حامد [1]:

(إن أهل السنة قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، القاهرة، مطبعة الحلبي، بدون تاريخ، ص٣.

العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، فمن جمد على التقليد واتباع الظواهر ما جمد إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا قواطع الشرع ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند لشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر.

وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ هيهات، قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات).

إن إصلاح البيت الإسلامي من داخله عن طريق الأمة- أولاً- والدول- إن استطاعت أو أرادت- ثانياً- هو المرحلة الأساسية لانطلاق دعوة الإسلام- فكراً وسلوكاً- فبدون (مؤاخاة) تقف فوق (الأخوة) وبدون (تكافل اجتماعي معنوي ومادي) وتأكيد عوامل الاتفاق وإخضاع مجالات الاختلاف للحلول المتدرجة اعتمادًا على العقل والوعي والثقافة والتطور- بدون هذا ستبقى الساحة الإسلامية حبيسة التنابز بالألقاب مكبلة بعدد من الانتماءات والشعارات التي خرجت من طور الوسيلة إلي طور الغاية، ومن الآلية القابلة للتغيير إلى الهدف والمقصد الشرعي الذي لا يقبل التغيير.. بل قد يتطور من كونه الفرع والنافلة إلى اعتباره الأصل والفريضة...

فإذا نجحت الأمة بصفوتها- في عبور هذه العقبة الكأداء، وانتشر الوعي بالحقيقة الإسلامية المتمثلة في القرآن الذي عاشه الرسول ﷺ على الأرض، وعايشه معه جيل خير أمة أخرجت للناس ففتحوا قلوب العالم بالإيمان وعقولهم بالمعرفة الكاملة النافعة.

إذا نجحنا في هذا نكون قد قطعنا شوطًا كبيراً في الطريق للحوار المتكافئ الندي مع غير المسلمين.. ويكون خطابنا الديني مؤهلا للحوار، ويقف على أرض صلبة...

فلديه حضارة الماضي التي هيمنت على العالم عشرة قرون كما يقول ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة)، ولديه واقع كريم ينطلق منه.. تتناغم فيه المعنويات والماديات والدنيويات والأخرويات ويعضد بعضها بعضاً.. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

وفي خطابنا الديني المعاصر يجب أن نخاطب كل القيادات الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتربوية والرياضية والأمنية والإعلامية.. ونظراً لأن الشعوب الغربية شعوب قارئة- وإن كانت تخضع للتضليلين: السياسي والإعلامي- فإن من الواجب الاهتمام بالحوار الثقافي معها- وهو في منظورنا حوار ديني ودنيوي- وبالتالي نقوم بإعداد تعريف عام بالإسلام يشرح القضايا التي يستفسر عنها الأوربيون عادة.. على أن يقوم بإعداده نخبة من المقيمين في أوروبا أو المترددين عليها، والمدركين لطبيعة الحياة الغربية، وإعداد دليل لبعض الألفاظ والمصطلحات، بعيداً عن حساسيات بعض المصطلحات التي يمكن أن تسيء إلى الحوار، ويا حبذا أن يكون رأي الإسلام والمسلمين الواعين الإسلام حاضراً في كل قضية تطفو على السطح، وفي كل مصطلح يراد تحريفه للإساءة إلى الإسلام مثل مصطلحات: الأصولية أو الإرهاب أو التطرف، ويجب توسيع دائرة إرسال النشرات والمجلات الصادرة باللغات الأوروبية عن المؤسسات الإسلامية إلى غير المسلمين بعد تمحيصها، وفتح المجالات لاستقبال الوفود التي تمثل المعاهد والمدارس والكنائس في مؤسساتنا الإسلامية في الشرق والغرب والتحاور معهم والرد على استفساراتهم، وإقامة ندوات للحوار بين رجال الكنيسة، وبين رجال المؤسسات الإسلامية بعد تزويد المدعوين بنشرات تشرح الإسلام شرحا موضوعيًّا، ويمكن دعوة السياسين والبرلمانيين وسائر المسئولين في المناسبات وغير المناسبات للتعريف بالنشاطات وإقامة لون من التعارف والحوار[1].

وينبغي إبراز المشتركات بين الأديان، والأصول الواحدة لها، والأهداف المشتركة، والتعريف بفترات السلم والتعاون، ومناطق التفاعل الحضاري كأسبانيا، وجزر البحر

(١) صلاح الدين الجعفراوي، المرجع السابق (بتصرف).

الأبيض والحروب الصليبية، وما انبثق عنها في فترات التعايش السلمي من إيجابيات معرفية.

كما ينبغي الاتصال بإدارات المدارس والكليات والمؤسسات الثقافية، وعقد حوارات معهم وتعريفهم بحقائق الإسلام، وتصحيح المفاهيم المغلوطة عنه وعن أثره في الحضارة.

وهناك في الجوانب الاجتماعية مجالات يمكن طرحها، ومنها التعريف بحضارة إحدى الدول الإسلامية، ومناقشة مشكلات البلد الأوروبي الذي يعيش فيه المجتمعون...

وكل ذلك في إطار الود والعلاقات الكريمة، والمجاملة الإنسانية للغربيين في أفراحهم وأحزانهم حيث يفرض الإسلام حسن المعاملة مع المسلمين وغير المسلمين... ويا حبذا الوقوف معهم في الأزمات التي يمكن أن يمروا بها، وكما يرى الدكتور صلاح الجعفراوي [1] فإنه يمكن أن تكون هذه المجاملة في صور شتى منها: إرسال كروت تهنئة في المناسبات السارة، أو مواساة السلطة الحاكمة إذا توفي بعض أعضائها، أو تهنئة الأحزاب والأشخاص الفائزين في الانتخابات أو مواساة الجيران أو التفاعل الإيجابي مع أي مشكلة تلم بالمنطقة.

وفي الجانب الإعلامي ينبغي رصد ما يكتب في الصحف والمجلات، وتصحيح كل ما هو مخالف بأسلوب يتناسب مع العقلية الغربية، والمشاركة في البرامج الإذاعية والتلفازية المنصفة البعيدة عن الإثارة، شريطة أن يكون المتحدث المسلم مُلمًّا بمبادئ الإسلام وتعاليمه، مجيدا للغة القوم مطلعا على قضاياهم، حسن المظهر والأداء، مع حسن المجادلة والحوار، والتحلي بالهدوء التام.

ومن المفيد أيضا في المجال الإعلامي دعوة بعض الإعلاميين لزيارة الدول العربية والإسلامية ولقاء بعض قادة الفكر، وتوثيق العلاقة مع المنصفين من رجال الإعلام

---

(١) المرجع السابق.

الغربي، والتعاون مع بعض القنوات والإذاعات وتزويدهم ببرامج معدة سلفا من المسلمين عن الإسلام والمسلمين، وإنتاج برامج مشتركة معهم تحسن صورة الإسلام وتحسن تقديم حضارة المسلمين.. وتقدم تصورات للتعاون المستقبلي المشترك، مع بيان أهميته وضرورته، موضحة- في المقابل – أخطار هذا الصراع الديني أو الحضاري أو السياسي والعسكري على الأطراف المتصارعة وعلى الحضارة الإنسانية المعاصرة كلها...

إننا من خلال خطابنا الديني الأصيل والمعاصر، الجامع بين النقل والعقل، والوحي والعلم، والمصالح الإسلامية والإنسانية.. نستطيع- بالحوار- أن نخدم ديننا، ونخدم سفينة الإنسانية التي يدفعها الصدام الديني- الحضاري- إلى الموت والفناء.

* * *